إسهام لاهوت الأديان في بناء المؤتلف الإنساني

عزالدين عناية ■

ما كانت قضايا المؤتلفِ الإنسانـيّ مطروحةً على الأديان بهـذا الإلحاح، كمـا هو الحال فـي الحقبـة المعاصرة؛ فالذات المؤمِنة أمام تساؤلاتٍ عدّةٍ تمليها التبدّلات الجارية في العالم الراهن، تحثُّ الأديانَ على إعادة النظرِ في تَمَثُّلِها للعالم وفي حضورها فيه، بعـد أن عصفت بالحـدود التاريخية تبدّلاتٌ عميقة. فقد تَراجَـع التباعدُ إلى مستوىً متـدنٍّ، وغَدَت الحدود واطئةً ورخوةً بين التقاليد الدينيّة. وما عاد يفيد الأديانَ التواري وراء حواجزَ «منيعةٍ»، بعد أن صار الوافد حاضراً بالداخل، فعلاً وقولاً وشـكْلاً، يسائل عيشَ الـذات ورؤيتَها للوجـود، ويشاركها واقعَهـا ومصيرَها. فقـد أسهمـت العولمة في زعزعـة الحدود الجغرافية والمادية، التي جعلت من ذلك الإيمان الديني أو غيره لغة الخلاص لشعوب وحضارات إنسانية بأسرها، وليتماهى ذلك الإيمان مع أرض ومع أمّة بعينها[1].

1 ـ Enzo Pace, *Sociologia delle religioni*, Centro editoriale dehoniano, Bologna 2016, pp. 330-331.

■ أستاذ تونسي بجامعة روما ـ إيطاليا.

وأمام تأكُّد حضور الدين الفاعل فـي مجتمعات ما بعد الحداثة ـ بعد أن توارت الشكوك في دوره وحضـوره وفاعليته[2] ـ نتساءل كمـا تساءل بيارباولو كونتي: أي إسهام إيجابي يمكن للأديان أن تجلبه للمجتمع الحديث وهو يبحث عن انطلاقة جديـدة، لأجل الخروج مـن الجفاء الحالي ولخـوْضِ مسارات واعدة[3]؟ تبدو مَهَمّةُ الدين متشعّبةً؛ فما عاد الدور قانعاً بما هو روحي، بل شمل الاجتماعـي أيضاً، إنه حضور في معتـرك الفعل الإنساني، ومـا يتطلّبه ذلك الحضور من توسيع زوايـا النظر، بعيداً عـن الضيق اللاهوتـي والانحصار الرؤيوي. فحضور الأديان اليوم في العالـم يفصح عن إمكانية إسهام إيجابي فيه، بما يخلّف تطوّراً في حياة الإنسان وسلامة في العالم.

لقد أمسى واقع حقـوق الضيافة والجـوار والتعايش مطروحـاً بإلحاحٍ، بموجب تقلّص المسافة الفاصلة بين الأديان اليـوم، فالوضع مدعاةٌ لتجديد النَّظـر والعمل، يقـرُب ممّا تسمّيـه ماريا بوجـي جونسون خـوض «تصنيع الضيافة»[4]، وهـو ما تقتضيه ظروف العيش المشترَك في عالم غدَتْ شـعوبه متداخلة وأديانه متجاورة. فلا شكّ أنّ قيمةَ المؤتلف الجامع من القِيم النبيلة والمحمودة على مستوى الداخل، يجري الاهتمام بها في أحضان الدين الواحد وحثّ المؤمنين علـى مراعاتها. لكـنّ المسألة تجد صعوبةً بيـن الاعتقادات المتباينة لَمّا تشمل المغاير الدينيّ، وهو ما يتطلّب مراجَعة دينية جادّة، تنفتح بموجبها لواهيت الأديان على احتضان الآخر. لقد كانت الأمور في التصوّرات الفقهيّة الكلاسيكية تُسوَّى في الغالب ضمن دائرة الإلزام والإكراه، وأمّا اليوم ـ وتحت مقتضيات التعايش بيـن الديانات والثقافات ـ فقـد دخلت المسألة ضمن دائرة مراعاة التعدّدية الدينية والثقافية وحقوق الإنسان. ومن هذا الباب تَشْغل مسألة حقوق التعايش الديني ـ أو بوجهٍ عامّ مسألة المؤتلف الإنساني ـ

2 ـ بشأن تلك المسائل الحيوية حول مصائر الدين في الزمن المعاصر، يمكن الاطلاع على الكتاب القيم لجوفياني كوتشي «**الدين والعلْمَنة**»:

Giovanni Cucci, *Religione e Secolarizzazione. La fine della fede?*, Cittadella Editrice, Assisi 2019.

3 ـ Pierpaolo Conti, *Cristiani e musulmani. In dialogo nel contesto della modernità*, Edizioni Messaggero, Padova 2020, p. 209.

4 ـ Maria Poggi Johnson, *Amor m'accolse. L'ospitalità al cuore della vita*, Marietti, Torino 2014, p. 30.

مختلفَ التقاليد الدينية، فما عاد دينٌ في حِلٍّ من هذا السؤال في ظلِّ التداخُل والتواصُل الحاصلين بين المؤمنين.

إلى أيّ مدى يُمكِن التعويل على المدوَّنات الفقهية الكلاسيكية المتأتّية من الأديان؟ وهل تكفي التصوّرات السالفة عن ذلك الآخر سواء أكان من «أهل الكتاب» أو من «عَدِيمي الكتاب» في هذا الشأن؟ فالمسألة ما عادت خاضعةً لمجرَّد قياسات ومقارَنات بناءً على ما حصل فيما مضى، تُستَنبط على إثرها فتاوى ومسالك وأحكام؛ بل باتت عمليةُ العيش المشتَرك برمّتها ناجمةً عن تجريبٍ يعيشه هذا الدين أو ذاك مع تقاليد دينية أخرى. ولا شك أنّ عمليةَ البحث عن صيغة التعايش الجديدة هدفها بالأساس حفظ الكيان الدينيّ الجمْعيّ من التفسُّخ، وسط عالم يمور بالتأثيرات القريبة والداهِمة، بما يُيَسِّر للذات النظرَ إلى العالم نظرة مستوعِبة للتنوّع دون إجحاف. لقد شهد عالَمُنا تحوّلاتٍ عميقةً مسّت الذات ومسّت الذوات المقابِلة، فالجميع يبحث عن وجود إيجابيّ.

لو نظرنا إلى مسألة المؤتلف الإنسانيّ في حدود الأديان الإبراهيمية؛ نتبيّن أنّ هذه الأديان لم يُتح لها ـ لحدّ الآن ـ إيجاد خطّة مشترَكة في التعايُش والتجاوُر بعضها مع بعض. تتواضع بمقتضاها على حضور أتباع الدين الآخر بين ظهرانيها، دون أن يلحقهم أذىً أو تَرهقهم ذِلّةٌ.

1 ـ الأديان الإبراهيمية ومقتضيات الخيمة الجامعة

لو نظرنا إلى مسألة المؤتلف الإنسانيّ في حدود الأديان الإبراهيمية؛ نتبيّنُ أنّ هذه الأديان لم يُتحْ لها ـ لحدّ الآن ـ إيجاد خطّة مشترَكة في التعايُش والتجاوُر بعضها مع بعض. تتواضع بمقتضاها على حضور أتباع الدين الآخر بين ظهرانيها، دون أن يلحقهم أذىً أو تَرهقهم ذِلّةٌ. وإن كانت حصلت معالجاتٌ منفرِدة للموضوع، اِختلفت تفاصيلها من دين إلى آخر، دون بلوغ أُسس جامعة بينها؛ فمن الأديان ما يملك تشريعات في الشأن، غير أنها تقادمت، أو هُجرت وداهَمتْها التبدّلات الاجتماعية الهائلة، دون أن يتعهّدَها أصحابها بالتهذيب والتنقيح، على غرار مؤسسة «أهل الذمّة» وحاضنة «أهل الكتاب» في الإسلام، ومن تلك الأديان ما لا يزال في طور تخْليق منظومة

لاستيعاب الآخر، لم يحصل إجماعٌ في شأنها داخل المواقع النافذة في المؤسسة الدينية، على غرار «لاهوت الأديان» في الكنيسة الكاثوليكية؛ فهو منذ صدور إعلانَيْ مجمع الفاتيكان: «**الكرامة الإنسانية**» (*Dignitatis Humanae*) و«**علاقة الكنيسة بالأديان غير المســـيحية**» (*Nostra aetate*) (1965) ما زال بين مدٍّ وجزرٍ[5]؛ في حين من الجانب اليهودي يبدو الفقه الناشئ داخل إسرائيل واقعاً تحت أثر الصراع مع العرب، ليغلب طابعٌ شوفينيٌّ عنصريٌّ عليه بالداخل[6]، في حين الفقه اليهودي المتطوّر خارج إسرائيل وفي الشتات فقهٌ منشغل بالحفاظ على الهوية اليهودية، وليس معنيّاً كثيراً بقضايا العيش المشترك مع الآخر.

في هذه المناخاتِ التي تعيشها الأديان ليس ثمة ما يبرِّرُ تميّز واقعٍ دينيّ عن آخر أو أفضلية تقليد دينيّ على غيره في تنظيم حقوق الائتلاف البشري. فالواقع الديني في أوروبا وفي الغـــرب ـ على سبيل المثـــال ـ إن اِحتكّ بِقِيَم الحداثة والعلمانيـــة والدولة المدنيّة، بمـــا يفوق غيره مـــن الوقائع الدينية الأخرى؛ فذلك لا يعني أنّ باب القبول للآخـــر قد بات مشرَّعاً على مصراعيه لديه، وقد تخلّص من مساوئه التاريخية. لذا يبقـــى السؤال المطروح: كيف تستأنف الأديان الإبراهيمية استيعاب بعضها بعضاً متجاوزةً التوتّرات الناجمة عن حواضنها السياسيّة؟ في الواقع يقتضي الأمر جـــرأةً إيمانية تعيد تعريف الهويات الدينية في اليهودية والمسيحية والإسلام بموجب تحدّ يشمل الجميع؛ إذ نقف على مصاعبَ جمّةٍ تُواجِه الأديان الثلاثة، لا يجري التنسيق أو التشاور في شأنها، وهي تؤثّر سلباً على هذه الأديان.

في الأديان التوحيديـــة ـ التي سيتسلّط عليها النّظـــر بشكل مركَّز ـ يجري الحديث عن «خيمة إبراهيم» الجامعة بصِيغٍ متنوّعة وبدلالات متقارِبة؛ فقد عدَّ لويس ماسينيون «**الضيافة الإبراهيمية**» جوهـــراً متأصّلاً في الأديان الثلاثة[7]،

5 ـ *I Documenti del Concilio Vaticano II*, Paoline, Milano 2002, p. 579 e s.

6 ـ أحمد أشـــقر، **التهجير والإبادة.. الفقه اليهودي المعاصر تجاه العرب**، بيسان، الطبعة الأولى، بيروت 2018، ص 218 – 219.

7 ـ Louis Massignon, *L'ospitalità di Abramo. All'origine di ebraismo, cristianesimo e islam*, Medusa, Milano 2002.

وهو تقريباً ما استعادَه لاحقاً الكردينال الإيطالي كارلو ماريا مارتيني في كتابه «**أبناء إبراهيم.. نحن والإسلام**»[8]؛ لاتساع الخيمة الإبراهيمية في احتضان الغريب؛ لأنّ النبيَّ إبراهيم عليه السلام كان غريباً أيضاً، قدِمَ من أور، من أرض العراق، واستقرّ به المقام في فلسطين، بما يعني أنّ الضيافةَ وحُسنَ الجوار شجرة وارفة يتفيّأ ظلّها الجميع، وتقليدٌ متأصّل في التقاليد الدينية لِورثة التراث الإبراهيمي. فمن الجانب اليهودي يحدّثنا «المدراش» عن إبراهيم الذي أرسل أليعازر باحثاً في الطرقات عمّن يستضيف في خيامه، لم ينل مراده، فقام بنفسه طالباً من يستضيف، فإذا به يلاقي ثلاثة تبيّن لاحقاً أنهم ملائكة: ميكائيل وجبريل ورفائيل، وهي القصة المستوحاة من (سفر التكوين 18: 2). والواردة كذلك في سورة هود في القرآن الكريم (الآية: 69) باختلاف في التفاصيل وليس في الجوهر ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾. خُلقٌ في غاية النّبلِ ما أحوج الأديان الثلاثة اليوم إليه. لكن عندما نسمع حديث أبناء إبراهيم اليوم وهُم يفتون بإخراج بعضهم بعضاً، ثمّة ما يثير الأسى على التنكر لميراث إبراهيم!

إنّ الواقع الديني في أوروبا وفي الغرب ـ على سبيل المثال ـ إن اِحتكّ بِقِيَم الحداثة والعلمانية والدولة المدنيّة، بما يفوق غيره من الوقائع الدينية الأخرى؛ فذلك لا يعني أنّ باب القبول للآخر قد بات مشرَّعاً على مصراعيه لديه، وقد تخلّص من مساوئه التاريخية.

مع مفتَتح السنة الأكاديمية في منتصف شهر أكتوبر (2011) صدرت فتوى عن حاخام مدينة صفد شموئيل إلياهو، وتبعه فيما بعد رجال دين يهود كثيرون في المدينة منهم عوفاديا يوسف، وابنه يعقوب، ودوف كيئور، تقضي بتحريم تأجير البيوت والمنازل اليهودية للطلبة العرب الذين يدرسون في الكليات الجامعية في المدينة، وبمرور الوقت انتشرت هذه الفتوى وتوسّعت لتشمل كلّ عرب فلسطين؛ فقد وقّع أكثر من خمسمائة رجل دين يهودي على عريضة فتوى تُحرّم بيْع البيوت اليهودية أو تأجيرها للعرب، أما الذين رفضوا الفتوى فهم من أتباع التيارات

8 - Carlo Maria Martini, *Figli di Abramo. Noi e l'Islam*, La Scuola, Brescia 2015.

«الحريدية»؛ ليس لأنهم ديمقراطيون؛ بل لأنهم يميّزون بين مركّبات «الغوييم»؛ فهم يميّزون بين المسلمين وغيرهـــم. ولأنّ المسلمين «يعبدون إلٰهاً واحداً دون أدنى شك» فلا مانع من تأجير العقارات لهم، أما بقية الغوييم ـ الذين يعبدون آلهةً غريبةً (وفـــي مقدّمتهم المسيحيـــون) ـ فيحظر بيع البيـــوت والعقارات أو تأجيرها إليهم[9]. هـــذه الفتاوى الدينيـــة المجحِفة تتناقض مـــع صريح النصّ التوراتي الحالي: «إذا نزل عندكم غريب في أرضكم فلا تظلموه. وليكن لكم الغريب المقيم كالمواطن. تحبّه كما تحبّ نفسك؛ لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر» (اللاويـــون 19: 33 - 34)، أو فـــي قولها: «تكون شـــريعة واحدة لمولودِ الأرض وللنّزيل النازل بينكم» (الخروج 12: 49)، ولكن الحاخام يجد من الحِيل الفقهية ما يبرّر فتواه. وتـــزداد المسألة داخل إسرائيـــل قتامة لما نرى أنظمة الصندوق القومي اليهودي تُنكر حقّ الإقامة أو التجارة أو حتى العمل على غير اليهودي، لا لشيء، إلا لأنه غير يهوديّ. ولا يحظر في الوقت نفسه على اليهود أن يقيمـــوا أو أن يعملوا فـــي أيّ مكان داخل إسرائيـــل[10]. ما أوردتـــه آنفاً هما شهادتان إحداهما لفلسطيني (أحمد أشقر) يعيش في الأرض المحتلة، والأخرى لإسرائيلي (إسرائيل شاحاك) عاش أيضاً في الأرض المحتلة (ت: 2001).

أعود إلى ما لحق إرث النبيّ إبراهيم عليه السلام من بلْبَلة؛ ذلك أنّ مفهومَ الملّة الإبراهيمية أو الخيمة الإبراهيمية حمّالٌ ذو وجوه، كلٌّ له دلالته وكلٌّ له تأويله، وما نشهده مـــن إيلاف فـــي الراهن داخـــل المجتمعـــات يأتي بفعـــل النظم التشريعية للدولة المدنية الحديثة، لا بموجب تحريـــض تعاليم تلك الأديان المنسوبة أصولها إلى إبراهيم عليه السلام رغم ما يلوح مـــن قواسم مشتركة بينها، ومن تقارُبٍ عقائديٍّ بين اليهودية والمسيحية والإسلام. ومن ثم يبقى التحدّي يواجه الجميـــع، وهو كيف تعيش تلك الأديان شـــراكة الأوطـــان؟ وكيف تغدو حاضنة بعضهـــا لبعض ولا تكون طـــاردة؟ إذْ ما برحت اليهوديـــة والمسيحية والإسلام دون مفهوم «أهل الكتاب» الضامـــن للعيش المشترك، ودون مفهوم

9 ـ أحمد أشقر، **التهجير والإبادة. الفقه اليهودي المعاصر تجاه العرب**، ص 218 - 219.

10 ـ إسرائيل شـــاحاك، **التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: وطأة ثلاثة آلاف سنة**، ترجمة: صالح علي سوداح، بيسان، بيروت 1995، ص 14.

«الأديان الإبراهيمية» الجامع للتنــوع المفترق، وينطبق عليها مفهوم «الأديان الثلاثة» المتجاورة والمتباعِدة في الآن نفسه.

وبوجهٍ عامّ تبدو الأديــان العالمية مقبلةً على مواســم اختبار عسيرة، بموجب التقارب الحاصل بين المؤمنين. فالمسائل التي تواجه تلك الأديان تتخطّى إمكانيات دين بعينه، وتتطلّب تضافر الجهود، مثل قضايا البيئــة والمناخ والفاقة والبطالة والأميّة، وغيرها من المشاكل العويصة. نحــن نعيش أزمات خُلُقية وقِيَمية ومعيشية لا يستطيع دينٌ بمفرده مجابهتها، وتتطلّب تكاتُف الجهود لحلّها؛ فالعالم يتغير من تحت أقدام الأديان الثلاثة بوتيــرةٍ متسارعةٍ، غالباً ما يتــاح للتشريعات المدنيّة التوافق مع تلك التغيرات، ولكن تتعثّر تلك الديانات عن مواكبتها، في وقت يُفترَض فيــه أن تكون الأقدر والأجدر؛ لما بينها من رؤى أنطولوجية جامعة.

بوجهٍ عامّ تبدو الأديان العالمية مقبلةً على مواسم اختبار عسيرة، بموجب التقارب الحاصل بين المؤمنين. فالمسائل التي تواجه تلك الأديان تتخطّى إمكانيات دين بعينه، وتتطلّب تضافر الجهود، مثل قضايا البيئة والمناخ والفاقة والبطالة والأميّة، وغيرها.

2 ـ اللاهوت المنفتِح

كان علماء الاجتمــاع الديني الأمريكان ـ أمثال رودنــاي ستــارك ولورانــس إياناكونــي وروبــرت توليسون ـ من أوائل من أزاحــوا الستار عن احتكارٍ مانعٍ، حاصلٍ في الفضاء الدينــي الأوروبي، أو كما يطلقون عليه انغلاق «السوق الدينية»، وتوجيهها من طرف متعهّد قوي (الكنيسة الكاثوليكية أو الكنائس البروتستانتيــة) يُمسِك بمقــدّرات الفضاء، ويضيّق الخناق على غيره فيه؛ فهو مَن يضبط مقاييس الحركة والنشاط والمكوث فيه. في هذا المناخ المحكوم بالاحتكار والمونوبول، من المفارَقات الكبرى في عصرنا أنّ الدينَ المستضعَف المهاجِــر يستجير بالعلمانية وبالدولــة المدنية طلباً للمقام الآمن، ولا يجد ذلك المأمن وتلك السكينة عند رفيقه في رحلة الإيمان، وهو حال الإسلام الأوروبي؛ فهو ليس في ضيافة الكاثوليكيــة أو البروتستانتية، ولكنه في كنف التشريعات المدنية[11]؛ فقد ضمنت تشريعات المجتمعات الحديثة ما عجزت

11 ـ نشير في هذا الصــدد إلى التحذيــر المتكرّر للكنيســة الكاثوليكية في إيطاليــا من التفريط للمسلمين في محلاّت رعوية مهجورة، بقصد استعمالها لأغراض دينية أو غير دينية.

الأديان عن توفيره، من حيــث إتاحة فُرَص القبول للآخــر، لِتغدو الضيافة دون عنوان دينيّ، وهو ما يعني انزواء الأديان وتَراجُع دورها. في وقت يُفترض فيه أن يكون المؤمن «الإبراهيميّ» بين أهله وملّته، حيــن يَفِد على الحاضنة الحضارية لدين من الأديان الثلاثة، لكن في الحقيقة لا يجد تلك السكينة، ويمسي عنواناً للغازي والمتربِّص القادم من وراء البحــار، ولذلك أمام دعاة الحوار اليهودي ـ المسيحي ـ الإسلامي ثمة سؤال محرِج: هل هناك ملّة إبراهيمية أو تراث إبراهيمي جامع؟ وفي حال الإقرار بوجود ملّة جامعة، على أيّ مشترك تقوم؟

في الجانب الإسلامي لا يواكب الفكر الدينيّ حركــة التحوّل المتسارِعة التي تشهدها المجتمعات؛ فذلك الآخر الدينــي ـ الوافِد والمقيم والمجاور ـ ضمن أي منظور وضمن أي خطّة يتعاطى معه؟ صحيح ثمة إطارٌ قانوني وجهازٌ بيروقراطي يتكفّلان بالأمر؛ لكنّ العملية في جوهرها تفتقر إلى منظور ثقافي عميق، وإلى رؤية دينية عصرية تساير تحوّلات العالم؛ إذ يبدو أنّ المنظومة الفقهية / الشرعية لم تخرج من الضوابط القديمة المتّصلة بأهل الذمة، مع أنّ الواقع قد تجاوَزَ مؤسسة أهل الذمة إلــى تشريع المواطَنَة. لذا نحن أمام ورشــة فقهية وتشريعية وسوسيولوجية مُشْرَعة حتى نعيد وعينا واندماجنا في العالم. وعلى سبيل الذكر تفتقد المجتمعات العربية إلى مراكز أبحاث متعلّقة بالهجرة بكافة أبعادها، وبالأديان الوافِــدة بكافة تبعاتها، رغم أنّ العديد من البلدان تعيش حرجاً كبيراً بفعل تفاقم الظاهرة.

لا تُحرِج مسألةُ التعايش الطرفَ الإسلامي فحسب، غير المستعدّ بشكل عامّ لهذه القضايا؛ بل تُحرج الغرب أيضــاً، ونقصد هنا مؤسساته الدينية وكنائسه. يصف عالم الاجتماع الإيطالي إنــزو باتشي أثرَ هذه التحولات قائلاً: لا تُكرِهنا العولمة على الخروج من المركزية الأوروبية فحسب؛ بل من المركزية المسيحية أيضاً؛ فحركة الهجرة تجلب إلينا إلــى عتبة البيت أناساً ليسوا مسيحيّين، ومن ثم تجبرنا على عيْش التنوّع الديني بمنظور جديد وليس مجرّد التباهي بعرضه. لِندرك في التوّ أنّ ذلك التنوّع لا يقتصر على الاختلاف في مجال الإيمان؛ وإنّما يجبرنا علــى إعادة النظر في أصــول الوفاق الاجتماعيّ ذاتــه، تحدٍّ خفيٌّ يملي أحياناً إعادة صياغة القواعد الاجتماعية المفروغ منهــا. فالحوار الديني يغادر

المَجامِع اللاهوتية ليغدوَ نقطة حسّاسة في الأجندات السياسية، وبما يعني تعلّمَ الإحساس بالتساوي في التنوع[12]. حتى المراجَعات التي أقرّها مَجْمَع الفاتيكان الثاني وبشَّر بها باتت تتطلّب مراجَعات أيضاً، سواء أكان من حيث التراجع عن تعاليم هذا المجْمَع والالتزام بروحه، أم من حيث حقيقة قدرته على بناء تعايش حقيقي. لعلّ المسلك العمليّ للبابا الحالي فرنسيس ماريو برغوليو في العديد من المناسبات فيه تلميحٌ لضرورة الخروج من أسْرِ الضوابط الكلاسيكية مع المغاير الدينيّ (زيارة البابا جزيرة لمبيدوزا الإيطالية التي صارت محجّاً للمهاجرين الوافدين من الجنوب، وزيارة السجن المدنيّ بروما وتقبيل أرْجل مساجين من ضمنهم مسلمون). صحيح هذه الممارسات رمزية؛ ولكنّها تعبِّر عن إرادةٍ لاستيعاب الغريب، قد تكون ترجمَتُها في الواقع مقصِّرةً أو مخِلّة.

لقد أملتْ عواملُ ـ مثل الهجرة، وانتشار وسائل التواصل ـ النظرَ مجدَّداً في الباراديغمات القديمة للأديان، ومن هنا بِتنا مَعنيّين ـ أكثر مّما مضى ـ بإيجاد أخلاق عيش مشترك تكون سنداً نظريّاً لسلوك عمليّ في تواصل الأديان بعضها ببعض.

3 ـ نحو أخلاق عمَلية للمؤتلف الإنسانيّ

لقد أملتْ عواملُ ـ مثل الهجرة، وانتشار وسائل التواصل ـ النظرَ مجدَّداً في الباراديغمات القديمة للأديان، ومن هنا بِتنا مَعنيّين ـ أكثر مّما مضى ـ بإيجاد أخلاق عيش مشترك تكون سنداً نظريّاً لسلوك عمليّ في تواصل الأديان بعضها ببعض. وفي غياب هذا الخُلُق يتعذّر الحديث عن استراتيجية مشترَكة بين الأديان أو مؤتلف جامع بينها. ضمن هذا السياق بادر اللاهوتي الألماني السويسري هانس كونغ بتدشين إطار أخلاقيّ جامع بين الأديان يشمل غير المتديّنين، ويتّسع إلى غير المؤمنين يُنظِّم العلاقة بينهم. تستند العلاقة فيه من الجانب المسيحي إلى إعادة نظر في المنظومة اللاهوتية المتقادِمة كما بيَّن كونغ، وإلى بناء سياسة تعايش إنجيلية ولاهوت أديان معنيّ بإحداث تحول في النظر يقطع مع الباراديغمات القديمة[13].

12 ـ Enzo Pace, *Sociologia delle religioni*, p. 331.

13 ـ Hans Küng, *Progetto per un'etica mondiale*, Rizzoli, Milano 1991, p. 85.

المطلوب إذن أن يتحوّلَ خُلق الضيافة والجوار إلى برنامج عَمليّ؛ لأنّ دون ذلك يكون الخوض في هذه المسائل محدود الأثر. ومن ثم كيف نصنع فلسفة الائتلاف الإنسانيّ في وقت نعيش فيه تجييشاً من بعضنا ضد بعض. السائد أنّ ثمة بُعداً عاطفيّاً طاغياً في النظر لعلاقــة الأديان؛ لكونها تستند إلى أرضية خُلُقيــة متماثِلة وإن تباعــدت على مستوى العقائــد والشعائــر. والحقيقة أنّ الأرضية الخُلقية لا تكفي لبناء قبول متبــادل، بل ينبغي أن تعضدَ الأمر خطّة عملية يراعيها الجميع. وهذه الفلسفة العمَلية تمرّ عبر المعرفة، فتنقية الأجواء بين الأديان يحتــاج إلى تعميق المعرفــة المتبادلة حتى يمكــن الحديث عن تعايُشٍ وتعارُفٍ. فلا يمكن أن نبلغَ التجاوُر الحَسَــن والتضايُف المرِح ما لم تنبنِ الأمور على تواصُــلٍ معرفيّ. من هنا لا تعايش بيــن الأديان دون تعارفٍ بينها ولا تعارُفَ بينها دون وعْيٍ علميّ.

ومن هذا الباب يقتضي خُلقُ الائتــلاف وحُسن التعايش التخلّي عن عقلية اغتنام حاجــة الآخر لِتغدوَ العمليــة فرصةً سانحــة للمستضيف ـ أي الطرف القويّ ـ لِقلبِ الآخر وتحوير مساره العقَدي. خلال عام 2000 أصدر «المؤتمر الأسقفي الإيطالي» ـ ضمــن توجيهاته الرعويــة ـ وثيقة بعنــوان: «التبشير بالإنجيل في عالم متغير»، جــاء في النقطة الثامنــة والخمسين: «ينبغي أن نواجه محوراً مستجدّاً بالغ الأهمية ذلك المتعلّق بتنصير الأفراد الوافدين علينا عبْر الهجرة. نحن مطالَبون بأداء رسالتنا بين غير المسيحيين في أرضنا. ومع إيلاء اهتمام إلــى تقاليدهم وثقافاتهم، ينبغي أن نكــون قادرين على تقديم الشهادة بالإنجيل إليهم، وإن وجدَ ذلك هــوى لديهم تبليغهم كلمة الرب»[14]. ثمّة رغبةٌ جامحة تهيمِنُ على المخيال الدينيّ المسيحيّ، تتلخّص في أنّ عمل الإحسان الكَنَسيّ (الكاريتاس) الموجَّه للمهاجرين ليس عملاً إنسانيّاً خالصاً، بل يبقى اللغة الأكثر ملاءمة لإبلاغ شهادة المسيح للمهاجرين.

لا يُجدي نفعاً أن نُطنبَ في الحديث عن اختزان الأديان لرصيد وافر من السلام والوئام والأخــوّة، إذا ما كانت أفعال المتديِّنيــن وأصحاب التوجهات

14 ـ Il Regno-documenti 13, (2001) 441ss.

الدينية تسير بخلاف ذلــك. قد يبدو الموضوع على الشكــلِ المعنوَن به هذا المبحث مسألــةً أخلاقيةً، في حين الأمر أعمق من الطــرح الأخلاقيّ، ويتعلّق بطرح إجرائيّ على صلة بمسائل قانونية تضبط علاقة التنوعات الثقافية؛ بقصد تجنّب أيِّ شــكلٍ من أشــكال المَيْز والحيْف[15]. إنّ إعداد أبحاث علمية لِرصدِ أوضاع الآخر فــي البلدان الغربية، أو فــي البلدان العربيــة، أو في الأراضي المحتلة في فلسطين، أو فــي غيرها من الأصقاع ـ تُولِــي التعايش والمؤتلف الإنساني اهتماماً من حيــث التشجيع عليه أو تعطيله، هي أشــغال لازمة حتى نعرف ما تُسْهم به الأديان في رفع المظالم أو تكريسها.

إنّ كثيراً من الأزمات التي يطفح بها عالمنا ـ لا سيّما منها القضايا المتّصلة بالهجرة، أو الحروب، أو الاضطرابات العرقية ـ ليست متأتية بفعل الأديان أو بفعل عوامل دينية، بل هي في الأغلب الأعمّ ناجمة عن عوامل سياسية تجد في الدين أحياناً غطاءً وحافزاً لشحذها وتعزيزها.

جليٌّ أنّ كثيراً مــن الأزمات التــي يطفح بها عالمنا ـ لا سيّما منها القضايا المتّصلة بالهجرة، أو الحــروب، أو الاضطرابــات العرقيــة ـ ليست متأتية بفعل الأديــان أو بفعل عوامل دينية، بل هي في الأغلب الأعمّ ناجمة عــن عوامل سياسية تجد في الدين أحياناً غطاءً وحافزاً لشحذها وتعزيزها. ويبدو المسلمون اليوم ـ في جملة من البلدان التي يمثّلون فيها أقلية ـ ضحايــا؛ ولكن المسلمين هم ضحايا فــي أوطانهــم أيضــاً يصنعــون مآسيهم بأيديهم ويعمّقونهــا بأنفسهم. فلا يمكن أن نصنع مآسينا في الداخل ونطالب الآخر أن يسوّيها نيابةً عنّا؛ إذ يدعو العنف المتفجّر في البلاد العربيــة وفي بلاد الإسلام عامة إلى تأمّلٍ رصين، بعيداً عن الإسقاطات المغرضة التي تتحكم بمقارَبة هذه الظاهرة. وهو ما أشــار إليه الكاتب الإيطالي بييترانجيلو بوتافوكو في سياق حديثه عن الواقــع العربي الراهــن، حيث يشتكــي السوريون مــن تناســي العالم لهم، ويستصرخــون الضمائر الحية لمــدِّ يد العــون، متسائلاً: وهل أبقــى العالم

15 ـ *Democrazia e religioni. Libertà religiosa diversità e convivenza nell'Europa del XXI secolo*, a cura di Erminia Camassa. Atti del convegno nazionale ADEC Trento, 22-23 ottobre 2015, Editoriale scientifica, Napoli 2016.

الإسلامي ضميــراً للبشريّة حتــى تتعاطف مع قضاياه؟ فاللاجــئ السوريّ في المخيال الغربي هو فائض عنف، وهو بقايا فوضى عارمة متشظّية ينبغي التوقّي منها بشتّى السُّبل، وإن لزمَ الأمــر حصرها في الداخل إلى ما لا نهاية، هكذا بات الغرب أمام قضايا العالم الإسلامي خالياً من الشعور الإنساني النبيل[16].

حين يَطرُق ملايين من المهاجريــن والمهجَّرين واللاجئين أبوابَ الغرب ـ طمعاً في الإقامة وطلباً للضيافة ـ فإنّ المسألةَ تتجاوز ما هو أخلاقي، وتغدو مسألة أمن قوميّ وأمن اجتماعيّ يبتّ فيهما القانون؛ إذ تقف دولٌ عاجزة أمام استيعاب موجات الضيــوف بالقوة الوافدين من جنــوب العالم وهم يطاردون وهْمَ الرفاه. فما يعنينــا بالأساس كيف تتعايش الأديــان داخل الحيز الواحد والوطن الواحــد دون أن يَلحَقَ الضعيفَ منها رهقٌ. فعلــى مستوىً دينيٍّ يسير العالم اليوم صــوْب ما يمكن تلخيصه بـ «التعدّديــة الدينية». ومع التحولات التي تشهدها المجتمعات في الحقبة المعاصرة ودخول عناصر مكوِّنة جديدة جراء الهجرة بكافة تداعياتها، غدت التعدّدية الثقافية والتعدّدية الدينية من المواضيع التي تفرض نفسها على أيّ نقاش اجتماعي جادّ داخل المجتمعات. وليست التعدّدية هــذه مطروحة داخل المجتمعات الغربيــة فحسب، بل داخل مجتمعات الجنوب أيضاً، لا سيما منها المجتمعات التــي تغري بالهجرة على غرار مجتمعــات الخليج العربي. وما يميــز التعددية في الغــرب أنّ المسألةَ ما عادت مطروحة في نطاق الحرية الدينيــة الفردية؛ بل في نطاق الحريات الجماعية بضمان المساواة للجماعات والجاليات والمكونات الناشئة على غرار المكوِّنات التقليدية.

تَشِيع توتّرات بين الأديــان متأتية من عوامل متنوّعــةٍ، منها الخشية من الاختراق والتبشير، وعادة ما تحُول مثل هذه المسائل دون التقارب، بما يُصوِّر الدينَ الآخرَ مهدِّداً ومتربّصاً. لذلك تبدو لواهيــتُ الأديان اليوم مدعوّةً إلى إعادة بناء الثقة المهتزّة بينها، فمن دون تحقيق تلك السكينة لا يمكن الحديث عن تعاونٍ صادق، ولن يتاح الاحتضان المتبادل. لا شــك أنّ الكنائس الغربية

16 ـ Pietrangelo Buttafuoco, *Il feroce saracino*, Bompiani, Milano 2015, pp. 105 e s.

هي أبرز متَّهَم بممارسة هذا الأفعال؛ فهي كنائس عابرة للقارات، ولديها قُدرات هائلة في التحكم باقتصاد المقدّس تفوق غيرها، بما يزيد من تأزّم العلاقات بين الأديان، حتى إنّ بعض الدول تصوغ قوانين تمنع التبشير كما الحال في الجزائر والهند[17].

لكن في ظلّ تلك المخاوف ينبغي تجنّب التعميم والنظر للأمور برويّة؛ ففي الجانب الإسلامي تَروج مواقف غائمة في شأن الإنجيليّين غالباً ما تخلّف نفوراً وريبة، وهي مواقف مستوحاة من علاقات الإنجيليين الجدد في أمريكا باليهودية المتصهْيِنة؛ لكن الجليَّ أنّ الإنجيليين لا تضمّهم كنيسة جامعة ولا تقودهم قيادة واحدة، وإن حدثت توتّرات في فضاء فلا يعني تعميمها على كلّ فضاءات التلاقي؛ ففي أندونيسيا، وفي إفريقيا في بلدان ما وراء الصحراء، وفي آسيا الوسطى ـ يحضر في هذا الفضاء الرحب شكلان من العروض الدينية، الإسلامية والإنجيلية، يلتقي المتنافسان كلّ يوم ويتعايشان بشكل سلميّ في مجمل الحالات. لا يتقاسم الطرفان الاعتقادات نفسها؛ لكن كليهما يُعرّف نفسه أنه مؤمن. وفي أوروبا في أحضان القارة المعلْمَنَة يقف الإسلام والمسيحية كفاعلين ناشطين، ضمن أوضاع الأقلية؛ فمثلاً في سويسرا تُمثِّل «**شبكة سويسرا الإنجيلية**» ـ *Réseau Evangélique Suisse* (RSE) ـ الهيئةَ التمثيليةَ الرئيسة للإنجيليّين، كانت هذه الهيئة قد عبّرت رسمياً عن رفضها التصويت لصالح قانون يمنع تشييد المآذن، وأعربت في بيان صادر باسم

تَشِيع توتّرات بين الأديان متأتية من عوامل متنوّعةٍ، منها الخشية من الاختراق والتبشير، وعادة ما تحُول مثل هذه المسائل دون التقارب، بما يُصوِّر الدينَ الآخرَ مهدِّداً ومتربّصاً. لذلك تبدو لواهيتُ الأديان اليوم مدعوّةً إلى إعادة بناء الثقة المهتزّة بينها.

17 ـ حدّد الأمر الصادر تحت رقم 06 - 02 مكرّر المؤرخ في 28 فبراير 2006 في الجزائر شروط الممارَسة الدينية لغير المسلمين، وأُلحِق بمرسوم تنفيذي رقم 07 - 135 المؤرخ في 19 مايو 2007 يضبط شروط وكيفيات سير التظاهرات الدينية لغير المسلمين.
وفي شأن الجدل القائم في الهند حول التبشير راجع مقال كريستوف غافريلو، «**مظاهر التدين الجديد في الهند والرهانات السياسية**»، (مجلة التفاهم)، ترجمة: عز الدين عناية، العدد 51، عُمان 2016، ص 125 - 142.

«**شـــبكة سويســـرا الإنجيلية**» عن «رفْضها الصريح من خلال صياغة قاعدة خاصة تتعلّق بطائفة دينية بعينها». ففي منظور «**شـــبكة سويسرا الإنجيلية**» لا يحلّ التصويت الرافض للصوامع بالأغلبية «أيّاً من المشاكل الفعلية»[18]؛ ذلك أنّ الصدام الجيوسياسي المزعوم بين الإسلام والحركات الإنجيلية هو نسبيّ[19].

ما نودُّ أن نُلخّص به هـــذا المبحث أنّ قضايا حقـــوق الائتلاف الإنساني تتطلّب وعيـــاً إيمانيّاً صادقاً بهـــذه القيمة، فلا يُجدي نفعـــاً الفخر باختزان الأديان لتراث عريق في المجال، بل المطلوب هو كيف نُحوّل ذلك الإرث إلى إيلاف وتعايشٍ وسَكينة؟ الأمـــر يتطلّبُ مصارحةً ونقـــداً ومراجعةً، بناءً على إحاطة معرفية، إذا ما كنّا نَروم لهذه الأديان أن تبقى نبراساً للبشر، لذلك أُشـــدّد على أنّ لواهيت الأديـــان تتحمّـــل دوراً لا بأس به في صنـــع المؤمن الحديث، من حيث تطوير وعيه وتوسيع نظرته للعالم. فلا يمكن اليوم نكران ما باتت تمليه العوْلَمة من ضرورة مراجعة أساليب النظر العتيقة في النظر إلى المعتقد الذاتي وإلى المعتقـــد الآخر، وإلى الإيمان الذاتي وإلى الإيمان الآخر؛ ذلك أنّ مظاهر التوتر، والانخرام، والصراعات، التي شهدها العالم على مدى قرون سالفة وإلى مشـــارف التاريخ الحديـــث ما كانت خالية من إسهام العقائد الدينية في صنعهـــا أو تأجيجها. والعالم اليوم ما عاد يتحمّل تلـــك المغامرات؛ فقد أضحـــت الأديان معنيّـــة بشكلٍ حـــازمٍ بمراجعة دورها ورسالتها في العائلة البشرية؛ فهناك دورٌ لا بأس به في بناء المؤتلف البشري يعود إلى تصالح الأديان بعضها مع بعض وإعادة رســـم علاقة جديدة بينها. والملحوظ أنّ الأخلاق ما عادت وحدها هي التي تدعو إلى خَلْق رؤية جديدة في التعامل؛ بل أصبحت مستوجبات التعايش الفعليّ هي التي تملي ذلك، جرّاء التقارب المفرط بين البشرية.

---

18 ـ "Réaction au vote sur les minarets", *Communiqué du Réseau Évangélique Suisse*, Genève, 1er décembre 2009.

انظر الرابط: http://www2.each.ch/aer/news/

19 ـ انظر مقال سباستيان فات: «**الإنجيليات الجديدة واهتماماتها السياســـية**»، ترجمة: عز الدين عناية، (مجلة التفاهم)، العدد 42، عُمان 2013، ص131 - 144.